مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّادِسَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مِنَ الصَّوَارِفِ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

وَمِنْ هَذِهِ الصَّوَارِفِ أَيْضًا: قَصْرُ الْهِمَّةِ عَلَىٰ كَثْرَةِ التِّلَاوَةِ فَقَطْ، عَمَلًا بِآيَاتٍ وَأَحَادِيثَ صَحَّتْ فِي فَضْلِهَا؛ لَكِنَّهُ هَجْرٌ لِآيَاتٍ وَأَحَادِيثَ صَرِيحَةٍ، حَثَّتْ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ وَالْخُشُوعِ، وَالتَّأَثُّرِ بِالْمَعَانِي وَالْعِظَاتِ.

وَيُعَضِّدُ ذَلِكَ: اقْتِصَارُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُذَكِّرِينَ وَالْوُعَّاظِ عَلَىٰ الرِّوَايَاتِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ السَّلَفِ فِي كَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ، وَعَدَدِ الْخَتْمَاتِ فِي وَقْتٍ وَجِيزٍ؛ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ نَقْلِ نَهْيِهِمْ عَنْ سُرْعَةِ الْقِرَاءَةِ وَالْعَجَلَةِ فِي التِّلَاوَةِ، أَوْ مَا نُقِلَ عَنْهُمْ فِي تَعْظِيمِهِمْ شَأْنَ التَّدَبُّرِ وَالحَضِّ عَلَيْهِ، أَوْ مَا رُوِيَ مِنْ تَأَثُّرِهِمْ بِالتِّلَاوَةِ وَوُقُوفِهِمْ عِنْدَ الْمَعَانِي، فَرُبَّمَا اقْتَصَرَ أَحَدُهُمْ عَلَىٰ نَقْلِ كَلَامِ ابْنِ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ: «وَإِنَّمَا وَرَدَ النَّهْيُ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ عَلَىٰ الْمُدَاوَمَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ أَمَّا فِي الْأَوْقَاتِ الْمُفَضَّلَةِ -كَشَهْرِ رَمَضَانَ-؛ فَيُسْتَحَبُّ الْإِكْثَارُ فِيهَا مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ وَغَيْرِهِمَا، وَعَلَيْهِ دَلَّ فِعْلُ غَيْرِهِمْ».

وَكَذَلِكَ مَا وَرَدَ مِنْ تَخْصِيصِ النَّهْيِ عَلَىٰ الْمُدَاوَمَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا -كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ- يَحْتَاجُ إِلَىٰ دَلِيلٍ.

www.menhag-un.com

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَبَعْضُ السَّلَفِ قَالَ: يُسْتَثْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ أَوْقَاتُ الْفَضَائِلِ، وَإِنَّهُ لَا بَأْسَ أَنْ يَخْتِمَ كُلَّ لَيْلَةٍ أَوْ فِي كُلِّ يَوْمٍ -كَمَا ذَكَرُوا هَذَا عَنِ الشَّافِعِيِّ، وَعَنْ غَيْرِهِ-؛ وَلَكِنَّ ظَاهِرَ السُّنَّةِ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ رَمَضَانَ وَغَيْرِهِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَلَّا يَتَعَجَّلَ، وَأَنْ يَطْمَئِنَّ فِي قِرَاءَتِهِ، وَأَنْ يُرَتِّلَ، كَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ: «**اقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ**»، هَذَا آخِرُ مَا أَمَرَهُ بِهِ، وَقَالَ: «**لَا يَفْقَهُ الْقُرْآنَ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»، وَلَمْ يَقُلْ: (إِلَّا فِي رَمَضَانَ)؛ فَحَمْلُ بَعْضِ السَّلَفِ هَذَا عَلَىٰ غَيْرِ رَمَضَانَ مَحَلُّ نَظَرٍ، وَالْأَقْرَبُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ الْمَشْرُوعَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْتَنِيَ بِالْقُرْآنِ، وَيَجْتَهِدَ فِي إِحْسَانِ قِرَاءَتِهِ، وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ، وَلَا يَعْجَلَ.

وَالْأَفْضَلُ أَلَّا يَخْتِمَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ، هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي عَلَىٰ حَسَبِ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ؛ وَلَوْ فِي رَمَضَانَ». انْتَهَىٰ كَلَامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

فَاسْتِحْبَابُ الْإِكْثَارِ مِنَ التِّلَاوَةِ فِي الْأَحْوَالِ الْفَاضِلَةِ أَمْرٌ ظَاهِرٌ؛ لَكِنْ لَا يَعْنِي هَذَا الِاسْتِحْبَابُ تَرْكَ التَّدَبُّرِ، وَالْعَجَلَةَ، مَعَ الْهَذْرَمَةِ فِي التِّلَاوَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ يَجْمَعُ النَّاسَ، وَيُقِيمُ شَخْصًا، وَيَقْرَأُ فِي النَّهَارِ الطَّوِيلِ ثَلَاثَ خَتْمَاتٍ، فَإِنْ قَصَّرَ عِيبَ، وإن أَتَمَّ مُدِحَ، وَهَذَا مِنْ تَلْبِيسِ إِبْلِيسَ؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ للهِ تَعَالَىٰ، لَا لِلتَّحْسِينِ بِهَا، وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ تَمَهُّلٍ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ...﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وَقَدْ لَبَّسَ عَلَىٰ قَوْمٍ بِكَثْرَةِ التِّلَاوَةِ، فَهُمْ يَهُذُّونَهُ هَذًّا مِنْ غَيْرِ تَرْتِيلٍ وَلَا تَثَبُّتٍ، وَهَذِهِ حَالَةٌ لَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ».

وَقَدْ رَوَىٰ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ: «أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ يَوْمٍ، أَوْ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ». وَهَذَا يَكُونُ نَادِرًا مِنْهُمْ، وَمَنْ دَاوَمَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا؛ إِلَّا أَنَّ التَّرْتِيلَ وَالتَّثَبُّتَ أَحَبُّ إِلَىٰ الْعُلَمَاءِ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**».

فَهَذَا أَيْضًا مِنَ الصَّوَارِفِ الَّتِي تَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: أَنْ تَكُونَ الْهِمَّةُ مَقْصُورَةً عَلَىٰ كَثْرَةِ التِّلَاوَةِ فَقَطْ.

وَكَذَلِكَ قَصْرُ الْهِمَّةِ عَلَىٰ تَحْقِيقِ الْقِرَاءَةِ، وَحُسْنِ التِّلَاوَةِ، وَقُوَّةِ الِاسْتِحْضَارِ؛ مَعَ هَجْرِ تَدَبُّرِهِ، وَضَعْفِ الْهِمَّةِ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ.

فَهَذَا أَيْضًا مِنَ الصَّوَارِفِ الَّتِي تَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ القُرْآنِ وَتَفَهُّمِهِ.

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي ذَلِكَ: «وَلْيَتَخَلَّ التَّالِي لِكِتَابِ اللهِ عَنْ مَوَانِعِ الْفَهْمِ، كَأَنْ يُخَيِّلَ لَهُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ مَا حَقَّقَ تِلَاوَةَ الْحَرْفِ، وَلَا أَخْرَجَهُ مِنْ مَخْرَجِهِ؛ فَيَصْرِفُ هِمَّتَهُ بِذَلِكَ عَنْ فَهْمِ الْمَعْنَىٰ، أَوْ يَكُونَ حَالُهُ حَالَ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لِلدُّنْيَا؛ حَيْثُ وَصَفَ حَالَهُ الْآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللهُ، فَقَالَ: يَفْخَرُ عَلَىٰ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ، وَيَحْتَجُّ عَلَىٰ مَنْ دُونَهُ فِي الْحِفْظِ، لَيْسَ لِلْخُشُوعِ فِي قَلْبِهِ مَوْضِعٌ، كَثِيرُ الضَّحِكِ وَالْخَوْضِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، هُوَ إِلَىٰ اسْتِمَاعِ حَدِيثِ جَلِيسِهِ أَصْغَىٰ مِنْهُ إِلَىٰ اسْتِمَاعِ مَنْ يَجِبُ

عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَمِعَ لَهُ؛ فَهُوَ إِلَىٰ كَلَامِ النَّاسِ أَشْهَىٰ مِنْ كَلَامِ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا، لَا يَخْشَعُ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، وَلَا يَبْكِي، وَلَا يَحْزَنُ، هِمَّتُهُ حِفْظُ الْحُرُوفِ، إِنْ أَخْطَأَ فِي حَرْفٍ سَاءَهُ ذَلِكَ؛ لِئَلَّا يَنْقُصَ جَاهُهُ عِنْدَ الْمَخْلُوقِينَ، فَتَنْقُصَ رُتْبَتُهُ عِنْدَهُمْ، فَتَرَاهُ مَحْزُونًا مَهْمُومًا بِذَلِكَ، وَقَدْ ضَيَّعَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ مِمَّا أَمَرَ بِهِ فِي الْقُرْآنِ أَوْ نَهَىٰ عَنْهُ، وَهُوَ غَيْرُ مُكْتَرِثٍ بِهِ.

كَثِيرُ النَّظَرِ فِي الْعِلْمِ الَّذِي يَتَزَيَّنُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا؛ لِيُكْرِمُوهُ بِذَلِكَ، قَلِيلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

تِلَاوَتُهُ لِلْقُرْآنِ تَدُلُّ عَلَىٰ كُرْهٍ فِي نَفْسِهِ، وَتَزَيُّدٍ عِنْدَ السَّامِعِينَ مِنْهُ، لَيْسَ لَهُ خُشُوعٌ، فَيَظْهَرُ عَلَىٰ جَوَارِحِهِ.

إِذَا دَرَسَ الْقُرْآنَ أَوْ دَرَسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ؛ فَهِمَّتُهُ مَتَىٰ يَقْطَعُ، لَيْسَ هِمَّتُهُ مَتَىٰ يَفْهَمُ.

لَا يَتَفَكَّرُ عِنْدَ التِّلَاوَةِ بِضُرُوبِ أَمْثَالِ الْقُرْآنِ، وَلَا يَقِفُ عِنْدَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.

يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِرِضَا الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا يُبَالِي بِسَخَطِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

يُحِبُّ أَنْ يُعْرَفَ بِكَثْرَةِ الدَّرْسِ، وَيُظْهِرُ خَتْمَةَ الْقُرْآنِ؛ لِيَحْظَىٰ عِنْدَ النَّاسِ، قَدْ فَتَنَهُ حُسْنُ ثَنَاءِ الْجَهَلَةِ.

أَخْلَاقُهُ أَخْلَاقُ الْجُهَّالِ: إِنْ أَكَلَ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ شَرِبَ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ لَبِسَ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ جَامَعَ أَهْلَهُ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ نَامَ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ صَحِبَ أَقْوَامًا أَوْ

زَارَهُمْ أَوْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَغَيْرُهُ مِمَّنْ يَحْفَظُ جُزْءًا مِنَ الْقُرْآنِ؛ مُطَالِبٌ لِنَفْسِهِ بِمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ؛ مِنْ عِلْمِ أَدَاءِ فَرَائِضِهِ، وَاجْتِنَابِ مَحَارِمِهِ؛ وإِنْ كَانَ لا يُؤْبَهُ لَهُ، وَلا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ».

وَمِنَ الصَّوَارِفِ الَّتِي تَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: تَقْدِيمُ مَا دُونَ التَّدَبُّرِ مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَالِاشْتِغَالُ بِذَلِكَ عَنِ التَّدَبُّرِ، وَذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ نَتِيجَةُ الْإِخْلَالِ بِتَرْتِيبِ أَوْلَوِيَّاتِ الْعِلْمِ وَمَقَاصِدِهِ، وَالْعَمَلِ وَمَنَافِعِهِ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ: «حَقٌّ عَلَىٰ طَلَبَةِ الْعِلْمِ بُلُوغُ غَايَةِ جُهْدِهِمْ فِي الِاسْتِذْكَارِ مِنْ عِلْمِهِمْ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ كُلِّ عَارِضٍ دُونَ طَلَبِهِ، وَإِخْلَاصِ النِّيَّةِ للهِ فِي اسْتِدْرَاكِ عِلْمِهِ نَصًّا وَاسْتِنْبَاطًا، وَالرَّغْبَةِ إِلَىٰ اللهِ فِي العَوْنِ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِعَوْنِهِ، فَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَ عِلْمَ أَحْكَامِ اللهِ فِي كِتَابِهِ نَصًّا وَاسْتِدْلَالًا؛ وَفَّقَهُ اللهُ لِلْقَوْلِ وَالعَمَلِ بِمَا عَلِمَ مِنْهُ؛ فَفَازَ بِالْفَضِيلَةِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَانْتَفَتْ عَنْهُ الرِّيَبُ، وَنَوَّرَتْ فِي قَلْبِهِ الْحِكْمَةُ، وَاسْتَوْجَبَ فِي الدِّينِ مَوْضِعَ الْإِمَامَةِ».

www.menhag-un.com

أَيُّمَا أَفْضَلُ: طَلَبُ الْقُرْآنِ أَوِ الْعِلْمِ؟

وَقَدْ سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيُّمَا أَفْضَلُ: طَلَبُ الْقُرْآنِ أَوِ الْعِلْمِ؟».

فَأَجَابَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَمَّا الْعِلْمُ الَّذِي يَجِبُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ عَيْنًا -كَعِلْمِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَمَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ-؛ فَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ حِفْظِ مَا لَا يَجِبُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ الْأَوَّلِ وَاجِبٌ، وَأما طَلَبُ الثَّانِي فَمُسْتَحَبٌّ، وَالْوَاجِبُ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ الْمُسْتَحَبِّ.

وَأَمَّا طَلَبُ حِفْظِ الْقُرْآنِ؛ فَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّا يُسَمِّيهِ النَّاسُ (عِلْمًا)، وَهُوَ إِمَّا بَاطِلٌ، أَوْ قَلِيلُ النَّفْعِ.

وَهُوَ أَيْضًا مُقَدَّمٌ فِي التَّعَلُّمِ فِي حَقِّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَلَّمَ الدِّينَ؛ مِنْ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ؛ فَإِنَّ الْمَشْرُوعَ فِي حَقِّ مِثْلِ هَذَا فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ: أَنْ يَبْدَأَ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ أَصْلُ عُلُومِ الدِّينِ.

وَالْمَطْلُوبُ مِنَ الْقُرْآنِ: هُوَ فَهْمُ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلُ بِهِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ هِمَّةَ صَاحِبِهِ وحافِظِهِ؛ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ».

وَقَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَمَّنِ اشْتَغَلَ بِظَاهِرِ العِلْمِ عَنِ الْمُهِمِّ: «فَرُبَّمَا رَأَيْتَ إِمَامَ مَسْجِدٍ يَتَصَدَّىٰ لِلْإِقْرَاءِ، وَلَا يَعْرِفُ مَا يُفْسِدُ الصَّلَاةَ، وَرُبَّمَا حَمَلَهُ التَّصَدُّرُ -

حَتَّىٰ لَا يَرَىٰ بِعَيْنِ الجَهْلِ- عَلَىٰ أَنْ يَجْلِسَ بَيْنَ يَدَيِ العُلَمَاءِ، وَيَأْخُذَ عَنْهُمُ العِلْمَ.

وَلَوْ تَفَكَّرُوا لَعَلِمُوا أَنَّ المُرَادَ: حِفْظُ القُرْآنِ، وَتَقْوِيمُ أَلْفَاظِهِ، ثُمَّ فَهْمُهُ، ثُمَّ العَمَلُ بِهِ، ثُمَّ الإِقْبَالُ عَلَىٰ مَا يُصْلِحُ النَّفْسَ، وَيُطَهِّرُ أَخْلَاقَهَا، ثُمَّ التَّشَاغُلُ بِالْمُهِمِّ مِنْ عُلُومِ الشَّرْعِ.

وَمِنَ الْغَبْنِ الْفَاحِشِ: تَضْيِيعُ الزَّمَانِ فِيمَا غَيْرُهُ الْأَهَمُّ».

وَمِنَ الصَّوَارِفِ عَنْ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: قَصْرُ مَعَانِي الْآيَاتِ عَلَىٰ قَوْمٍ مَضَوْا، أَوْ أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ قَدِ انْتَهَتْ، أَوْ أَوْضَاعٍ مَضَتْ، وَأَنَّ الْوَاقِعَ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْإِرْشَادِ وَالْبَيَانِ؛ وَلِذَا كَانَ هَذَا صَارِفًا لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عَنْ إِمْعَانِ النَّظَرِ فِي الْقُرْآنِ، وَالْبَحْثِ عَنِ الْهُدَىٰ فِيهِ، وَطَلَبِ الشِّفَاءِ مِنْهُ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْعُرُونَ بِدُخُولِ الْوَاقِعِ تَحْتَهُ، وَتَضَمُّنِهِ لَهُ، وَيَظُنُّونَهُ فِي نَوْعٍ وَفِي قَوْمٍ قَدْ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، ولم يُعَقِّبُوا وَارِثًا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَلَعَمْرُ اللهِ إِنْ كَانَ أُولَئِكَ قَدْ خَلَوْا؛ فَقَدْ وَرِثَهُمْ مَنْ هُوَ مِثْلُهُمْ، أَوْ شَرٌّ مِنْهُمْ، أَوْ دُونَهُمْ، وَتَنَاوُلُ الْقُرْآنِ لَهُمْ كَتَنَاوُلِهِ لِأُولَئِكَ».

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّطِيفِ آلُ الشَّيْخِ: «وَرُبَّمَا سَمِعَ بَعْضُهُمْ قَوْلَ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: هَذِهِ نَزَلَتْ فِي عُبَّادِ الْأَصْنَامِ، هَذِهِ فِي النَّصَارَىٰ، هَذِهِ فِي الصَّابِئَةِ؛

فَيَظُنُّ الْغُمْرُ أَنَّ ذَلِكَ مُخْتَصٌّ بِهِمْ، وَأَنَّ الْحُكْمَ لَا يَتَعَدَّاهُمْ! وَهَذَا أَكْبَرُ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ فَهْمِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ».

وَمَا أَشْبَهَ هَذَا بِمَا فَعَلَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ حِينَمَا حَصَرُوا هَدْيَ الْقُرْآنِ فِي شَعَائِرَ مَحْدُودَةٍ: كَالصَّلَاةِ، وَالطَّهَارَةِ، وَالصَّوْمِ، وَالزَّكَاةِ، وَنَحْوِهَا، وَيَهْجُرُونَ هَدْيَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ فِي مَجَالَاتٍ أُخْرَىٰ، كَسَائِرِ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ.

وَما حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ مَجَالَاتٌ حَدِيثَةٌ لَا تَدْخُلُ تَحْتَ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ.

فَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَفِعَ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَنْ يَجْعَلَ الْقُرْآنَ خِطَابًا مُوَجَّهًا إِلَيْهِ، وَأَنْ يُقَدِّرَ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِكُلِّ خِطَابٍ فِي الْقُرْآنِ، فَإِنْ سَمِعَ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا؛ قَدَّرَ أَنَّهُ الْمَنْهِيُّ وَالْمَأْمُورُ، وَإِنْ سَمِعَ وَعِيدًا أَوْ وَعْدًا؛ فَكَذَلِكَ، وَإِنْ سَمِعَ قَصَصَ الْأَوَّلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ؛ عَلِمَ أَنَّ السَّمَرَ غَيْرُ مَقْصُودٍ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ: أَنْ يَعْتَبِرَ بِهَا، وَيَأْخُذَ مِنْ تَضَاعِيفِهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

وَإِذَا قُصِدَ بِالْخِطَابِ جَمِيعُ النَّاسِ؛ فَهَذَا الْقَارِئُ الْوَاحِدُ مَقْصُودٌ، فَمَا لَهُ وَلِسَائِرِ النَّاسِ؟!! فَلْيُقَدِّرْ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ؛ فَكَأَنَّمَا كَلَّمَهُ اللهُ».

وَإِذَا قَدَّرَ ذَلِكَ؛ لَمْ يَتَّخِذْ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَمَلَهُ؛ بَلْ يَقْرَؤُهُ كَمَا يَقْرَأُ الْعَبْدُ كِتَابَ مَوْلَاهُ الَّذِي كَتَبَهُ إِلَيْهِ؛ لِيَتَأَمَّلَهُ، وَيَعْمَلَ بِمُقْتَضَاهُ.

إِنَّ النَّصَّ عِنْدَمَا يَتَوَجَّهُ إِلَىٰ الْأُمَّةِ؛ فَهُوَ شَامِلٌ لَهَا، وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ هُوَ كِتَابُ اللهِ الْخَاتَمُ؛ فَلَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابٌ لِهِدَايَةِ الْبَشَرِ بَعْدَهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَتَضَمَّنَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ صَلَاحَ الْبَشَرِيَّةِ، إِلَىٰ أَنْ يَرْفَعَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الصُّدُورِ وَالسُّطُورِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَجْعَلُ الْمَرْءَ مُقَدِّرًا لِكَلَامِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، مُؤْتَمِرًا بِأَوَامِرِهِ، مُنْزَجِرًا بِزَوَاجِرِهِ، مُتَّعِظًا بِمَوَاعِظِهِ، مُنْتَهِيًا بِنَهْيِهِ: أَنْ يُقَدِّرَ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -وَهَذَا كَلَامُهُ- يُكَلِّمُهُ كِفَاحًا مِنْهُ إِلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، يَقُولُ لَهُ: يَا عَبْدِي؛ افْعَلْ، وَلَا تَفْعَلْ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ وَالْعُلَمَاءُ.

* **وَمِمَّا يَصْرِفُ عَنْ التَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: الِانْشِغَالُ بِالْمُبْهَمَاتِ؛ فَإِنَّ الِاهْتِمَامَ بِتَفَاصِيلِ الْحَوَادِثِ الَّتِي لَمْ تُذْكَرْ صَارِفٌ عَنِ التَّدَبُّرِ، وَعَنْ مَقَاصِدِ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ، فَكَثِيرًا مَا يَرِدُ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَعْيَانٌ وَأَمَاكِنُ وَأَعْدَادٌ مُبْهَمَةٌ، وَلَمْ يُبَيِّنْهَا الرَّسُولُ ﷺ، فَهِيَ أُمُورٌ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا عَمَلٌ، وَلَا يَحْصُلُ بِهَا عِلْمٌ نَافِعٌ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ.

وَقَدْ هَوَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ شَأْنِ مَعْرِفَةِ النَّاسِ بِعَدَدِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٢]، فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ مَعْرِفَةَ عَدَدِهِمْ لَا طَائِلَ تَحْتَهَا، فَمِثْلُ تِلْكَ الْأُمُورِ لَا فَائِدَةَ فِيهَا تَعُودُ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِينَ فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا دِينِهِمْ، وَالْبَحْثُ عَنْهَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، وَلَا فَائِدَةَ فِيهِ.

* **وَمِمَّا يَدْعُو إِلَىٰ قُصُورِ النَّظَرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَالوُقُوعِ دُونَ فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ**: النَّظَرُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ خِلَالِ مَفْهُومَاتٍ قَاصِرَةٍ، وَمِنْ خِلَالِ تِلْكَ الْمَفْهُومَاتِ الْقَاصِرَةِ تُفْهَمُ الآيَاتُ، وَتُفَسَّرُ الْمَقَاصِدُ، وَيُخَصَّصُ الْعَامُّ، وَيُقَيَّدُ الْمُطْلَقُ، وَمِنْ خِلَالِ خَلْفِيَّاتٍ سَابِقَةٍ يُحْكَمُ عَلَىٰ النُّصُوصِ بِهَا؛ فَلَا يَنْتَفِعُ الْقَارِئُ حِينَئِذٍ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُ التَّدَبُّرُ الْمَقْصُودُ، فَهُوَ يُرَدِّدُ الْأَلْفَاظَ وَقَدْ زَاغَ قَلْبُهُ عَنِ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادِ، أَوْ قَصُرَ نَظَرُهُ، أَوْ ضَلَّ فَهْمُهُ.

وَمِنَ الشَّوَاهِدِ: تَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وَهُوَ مَا رَوَاهُ أَسْلَمُ أَبُو عِمْرَانَ التُّجِيبِيُّ، قَالَ: «كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ صَفِّ الرُّومِ حَتَّىٰ دَخَلَ فِيهِ -أَيِ: انْغَمَسَ فِي الْعَدُوِّ-، فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ! فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّما أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ: الْإِقَامَةَ عَلَىٰ الْأَمْوَالِ، وَإِصْلَاحَهَا، وَتَرْكَنَا الغَزْوَ».

وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَاللَّفْظُ لَهُ، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَكَذَلِكَ أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ: «وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالْحَاكِمُ»، وَكَذَا صَحَّحَهُ مُحَقِّقُ «زَادِ الْمَعَادِ».

فَهَذَا مِثَالٌ أُوِّلَتْ فِيهِ الْآيَةُ عَلَىٰ غَيْرِ تَأْوِيلِهَا.

وَمِثَالٌ آخَرُ: فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

عَنْ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَتَضَعُونَهَا عَلَىٰ غَيْرِ مَوَاضِعِهَا: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَىٰ يَدَيْهِ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ**»».

وَكَذَلِكَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]:

قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ رضي الله عنه: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ.

قَالَ ﷺ: «**أَلَيْسَ يُحِلُّونَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟**».

قَالَ: بَلَىٰ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**».

وَمِثَالٌ آخَرُ: فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [الكافرون: ٦]: فَكَثِيرًا مَا تَسْمَعُ مَنْ يَسْتَشْهِدُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ سَبِيلَهُ، وَلَا أَحَدَ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ، وَلِكُلٍّ دِينُهُ وَطَرِيقَتُهُ!!

وَمَا عَلِمَ أَنَّ الْآيَةَ حُجَّةٌ عَلَيْهِ، لَا لَهُ، وَأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ بِمُقْتَضَىٰ الْآيَةِ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يُعْلِنَ كُفْرَ مَنْ خَالَفَهُ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ، وَأَلَّا يَلْتَقِيَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ، وَأَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ كُفْرٌ وَضَلَالٌ؛ مَهْمَا ظَنُّوهُ دِينًا أَوْ عِبَادَةً، وَهَكَذَا الْقَوْلُ فِي أَصْحَابِ الْبِدَعِ وَالْمُخَالَفَاتِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي دُونَ الْكُفْرِ.

فَمُقْتَضَىٰ الْآيَةِ: أَنْ يُصَرِّحَ لَهُمْ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَأَنَّهُمْ مُخَالِفُونَ لِلْحَقِّ فِي فِعْلِهِمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ دِينِهِمْ فِي شَيْءٍ.

* **وَمِمَّا يُؤَدِّي إِلَىٰ عَدَمِ التَّدَبُّرِ فِي آيَاتِ اللهِ** جَلَّوَعَلَا: قَصْرُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ؛ كَمَنْ لَا يَسْعَىٰ إِلَىٰ سَمَاعِ الْقُرْآنِ إِلَّا عِنْدَ مَرَضِهِ، أَمَّا فِي حَالِ صِحَّتِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ وَصَفَاءِ ذِهْنِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَشَوَّفُ إِلَىٰ سَمَاعِ الْقُرْآنِ أَوْ تِلَاوَتِهِ؛ حَيْثُ حَرَمَ نَفْسَهُ السَّبِيلَ إِلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ حَالُ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْقُرْآنَ إِلَّا تِلَاوَةً عِنْدَ الْعَزَاءِ -وَلَا يَخْفَىٰ أَنَّ هَذِهِ مِنَ الْبِدَعِ-، أَوْ عِنْدَ افْتِتَاحِ الْبَرَامِجِ، أَوْ فِي

الْمُنَاسَبَاتِ الْعَامَّةِ، وَلَا يَعْرِفُ لَهُ وَقْتًا آخَرَ لِسَمَاعِ الْقُرْآنِ أَوْ قِرَاءَتِهِ؛ فَأَنَّىٰ لِمِثْلِ هَذَا أَنْ يَتَدَبَّرَ، أَوْ يَتَأَمَّلَ، أَوْ يَتَفَكَّرَ، أَوْ يَعْتَبِرَ، أَوْ يَتَأَثَّرَ؟!

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ مِنَ الصَّوَارِفِ الَّتِي تَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

أُصُولُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ

وَأَمَّا أُصُولُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:

فَالْأَصْلُ الْأَوَّلُ: مُفْرَدَاتُ اللُّغَةِ، أَوْ غَرِيبُ الْقُرْآنِ.

وَالْمُرَادُ بِهِ: الْعِلْمُ الْمُخْتَصُّ بِتَفْسِيرِ الْأَلْفَاظِ الْغَامِضَةِ فِي الْقُرْآنِ الكَرِيمِ، وَتَوْضِيحِ مَعَانِيهَا بِمَا جَاءَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ.

وَإِدْرَاكُ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ أَهَمِّ مَا يَبْدَأُ بِهِ الْمُفَسِّرُ، وَكَذَا كَانَ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ السَّلَفِ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ: صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالتَّابِعُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

قَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَا نُقِلَ مِنْ فَهْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ كُلَّهُ جَارٍ عَلَىٰ مَا تَقْتَضِي وَتَقْضِي بِهِ الْعَرَبِيَّةُ، وَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ».

فَهَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَدْ بَيَّنَ جُمْلَةً مِنْ غَرِيبِ الْقُرْآنِ، وَاسْتَشْهَدَ عَلَىٰ ذَلِكَ بِالشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ، وَذَلِكَ فِي مَسَائِلِهِ الْمَشْهُورَةِ مَعَ نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ؛ وَإِنْ كَانَ فِي ثُبُوتِ ذَلِكَ نَظَرٌ.

وَيُؤَكِّدُ عَلَىٰ أَهَمِّيَّةِ ذَلِكَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَيَقُولُ: «لَا أُوتَىٰ بِرَجُلٍ يُفَسِّرُ كِتَابَ اللهِ غَيْرَ عَالِمٍ بِلُغَاتِ الْعَرَبِ؛ إِلَّا جَعَلْتُهُ نَكَالًا».

وَفِي ذَلِكَ قَالَ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: «وَذَكَرْتُ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِهِ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ: الْعُلُومُ اللَّفْظِيَّةُ، وَمِنَ الْعُلُومِ اللَّفْظِيَّةِ: تَحْقِيقُ الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ؛ فَتَحْصِيلُ مَعَانِي مُفْرَدَاتِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ فِي كَوْنِهِ مِنْ أَوَائِلِ الْمَعَادِنِ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُدْرِكَ مَعَانِيَهِ؛ كَتَحْصِيلِ اللَّبِنِ فِي بِنَاءِ مَا يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَهِ».

قَالَ الشَّاطِبِيُّ: «فَمَنْ أَرَادَ تَفَهُّمَ الْقُرْآنَ؛ فَمِنْ جِهَةِ لِسَانِ الْعَرَبِ يَفْهَمُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ تَطَلُّبِ تَفَهُّمِهِ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الْجِهَةِ؛ وَلِذَا فَإِنَّ تَفْسِيرَ كَلَامِ اللهِ الَّذِي لَا يُؤْخَذُ مِنْ دَلَالَةِ أَلْفَاظِ الْآيَةِ؛ هُوَ رَدٌّ عَلَىٰ قَائِلِهِ، وَهَذَا الْأَمْرُ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَهَا هُوَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ يَرَىٰ أَنَّ وَضْعَ كَلَامِ اللهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ مِنَ الْإِلْحَادِ، فَيَقُولُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ [فصلت: ٤٠]: الْإِلْحَادُ فِي آيَاتِ اللهِ: أَنْ يُوضَعَ الْكَلَامُ عَلَىٰ غَيْرِ مَوَاضِعِهِ».

قَالَ السُّيُوطِيُّ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ تَفْسِيرَ ابْنَ عَبَّاسٍ السَّابِقَ: «فَفِيهِ الرَّدُّ عَلَىٰ مَنْ تَعَاطَىٰ التَّفْسِيرَ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ جَوْهَرُ اللَّفْظِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْبَاطِنِيَّةُ، وَالِاتِّحَادِيَّةُ، وَالْمَلَاحِدَةُ، وَغُلَاةُ الصُّوفِيَّةِ».

وَأَقُولُ: إِنَّ أَصْحَابَ الْقِرَاءَاتِ الْجَدِيدَةِ لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ يَلْحَقُونَ بِهَذِهِ الطَّوَائِفِ؛ لِأَنَّ تَفْسِيرَهُمْ لِلْقُرْآنِ تَفْسِيرٌ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ جَوْهَرُ اللَّفْظِ.

وَفِي ذَلِكَ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ وَهُوَ يُعَدِّدُ أَسْبَابَ الْخَطَأِ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ جِهَةِ الِاسْتِدْلَالِ: «وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ مُسْتَنَدَيْ الِاخْتِلَافِ -وَهُوَ مَا يُعْلَمُ

بِالِاسْتِدْلَالِ لَا بِالنَّقْلِ- فَهُوَ أَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِيهِ الْخَطَأُ مِنْ جِهَتَيْنِ حَدَثَتَا بَعْدَ تَفْسِيرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ».

فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الأَوَّلُ.

وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي: فَكُلِّيَّاتُ الْقُرْآنِ.

الْأَوَّلُ: مَعْرِفَةُ مَعَانِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِغَرِيبِ الْقُرْآنِ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ غَرِيبًا فِي عَصْرٍ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَرِيبًا فِي عُصُورٍ خَلَتْ، وَإِنَّمَا اسْتَعْجَمَتِ الْأَلْسُنُ، وَضَعُفَتِ الْمَلَكَةُ اللُّغَوِيَّةُ؛ فَصَارَ النَّاسُ بِحَيْثُ لَا يَعْرِفُونَ مَعَانِيَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي كَانَتْ مَعْرُوفَةً لِأَسْلَافِهِمْ.

فَالْأَصْلُ الْأَوَّلُ مُتَعَلِّقٌ بِغَرِيبِ الْقُرْآنِ.

الْأَصْلُ الثَّانِي مُتَعَلِّقٌ بِكُلِّيَّاتِ الْقُرْآنِ.

وَالْمَقْصُودُ بِكُلِّيَّاتِ الْقُرْآنِ: وُرُودُ لَفْظٍ أَوْ أُسْلُوبٍ فِي الْقُرْآنِ عَلَىٰ مَعْنًىٰ أَوْ طَرِيقَةٍ مُطَّرِدَةٍ أَوْ أَغْلَبِيَّةٍ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ كُلِّيَّاتِ الْأَلْفَاظِ وَكُلِّيَّاتِ الْأَسَالِيبِ:

أَنَّ الْأَلْفَاظَ: مَا كَانَ مَدَارُ الْكُلِّيَّةِ فِيهَا عَلَىٰ لَفْظَةٍ أَوْ جُمْلَةٍ أَوْ تَرْكِيبٍ مُعَيَّنٍ؛ سَوَاءٌ أَفَادَ هَذَا مَعْنًىٰ وَتَأْوِيلًا، أَوْ طَرِيقَةً وَنَهْجًا لِمَا سَارَتْ عَلَيْهِ اللَّفْظَةُ أَوِ الْأَلْفَاظُ فِي الْقُرْآنِ، وَاسْتُخْدِمَتْ فِيهِ مِنْ مَجَالٍ، وَسِيقَتْ لَهُ مِنْ مَقَالٍ.

بَيْنَمَا الْأَسَالِيبُ لَا تُحَدُّ، وَلَا تُقَيَّدُ بِلَفْظٍ خَاصٍّ أَوْ أَلْفَاظٍ بِعَيْنِهَا، بَلْ هِيَ تَتَّجِهُ إِلَىٰ نَهْجِ الْقُرْآنِ وَطَرِيقَتِهِ فِي نَظْمِهِ، أَوْ عَرْضِهِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْقَضَايَا وَالْمَوْضُوعَاتِ؛ كَمَوْضُوعِ الْقَسَمِ فِي الْقُرْآنِ، وَالْجَمْعِ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَحِكَايَةِ الْمُحَاوَرَاتِ وَالْمُجَاوَبَاتِ وَغَيْرِهَا.

وَلِلْكُلِّيَّاتِ صِيَغٌ، أَشْهَرُهَا: (كُلّ)، وَ(حِينَمَا)، وَ(أَيْنَمَا)، وَ(حَيْثُمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ)، أَوْ (حَيْثُ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ)، وَ(جَمِيعُ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ)، وَ(عَامَّةُ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ)، وَ(عَادَةُ الْقُرْآنِ).

وَالْعِلْمُ بِهَذِهِ الْكُلِّيَّاتِ -سَوَاءٌ فِي الْأَلْفَاظِ أَوِ الْأَسَالِيبِ- مِنَ الْأُصُولِ الْهَامَّةِ جِدًّا فِي فَهْمِ كَلَامِ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ لِذَا عُنِيَ بِهَا سَلَفُ الْأُمَّةِ مِنْ مُفَسِّرِيهَا؛ وَخَاصَّةً فِي الْأَلْفَاظِ؛ لِذَا حَوَتْ كُتُبُ التَّفَاسِيرِ كَمَا وَفِيرًا مِنَ هَذِهِ الْكُلِّيَّاتِ، وَعَلَىٰ رَأْسِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرُوا ذَلِكَ -وَهُوَ أَكْثَرُهُمْ-: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَعَطَاءٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ كُلِّيَّاتِ الْأَلْفَاظِ:

قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ: «وَالتَّزَكِّي فِي الْقُرْآنِ كُلِّهُ: الْإِسْلَامُ»، وَقَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦]، قَالَ: «مَنْ أَسْلَمَ».

وَقَرَأَ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣]، قَالَ: «يُسْلِمُ».

وَقَرَأَ: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧]، قَالَ: «يُسْلِمُ».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «كُلُّ تَسْبِيحٍ فِي الْقُرْآنِ صَلَاةٌ».

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «الْخَيْرُ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهُ: الْمَالُ».

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: «الْخَيْرُ حَيْثُ وَقَعَ فِي كِتَابِ اللهِ: الْمَالُ».

وَهَذَا الْأَصْلُ اعْتَمَدَهُ السَّلَفُ فِي تَرْجِيحِ أَقْوَالِهِمْ وَتَأْيِيدِهَا، وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي نِقَاشِهِ لِنَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ فِي مَعْنَىٰ كَلِمَةِ «الْوُرُودِ» اسْتَدَلَّ عَلَىٰ مَا يَذْكُرُهُ بِالْغَالِبِ فِي اسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ؛ فَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «إِنَّ مَعْنَىٰ الوُرُودِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]: الدُّخُولُ.

فَقَالَ نَافِعٌ: لَا.

فَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، أَوُرُودٌ هُوَ أَمْ لَا؟!

وَقَالَ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] أَوُرُودٌ هُوَ أَمْ لَا؟! أَمَّا أَنَا وَأَنْتَ؛ فَسَنَدْخُلُهَا، فَانْظُرْ هَلْ نَخْرُجُ مِنْهَا أَمْ لَا؟».

فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الثَّانِي، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِكُلِّيَّاتِ الْأَلْفَاظِ، أَوْ كُلِّيَّاتِ الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَسَالِيبِ.

وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ: دَلَالَاتُ الْأَلْفَاظِ.

وَمِنَ الْمُهِمَّاتِ لِكُلِّ نَاظِرٍ وَمُتَدَبِّرٍ: أَنْ يُحِيطَ بِدَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ مِنْ حَيْثُ العُمُومُ وَالْخُصُوصُ، وَالْمُطْلَقُ وَالْمُقَيَّدُ، وَالْمَنْطُوقُ وَالْمَفْهُومُ؛ لِأَنَّهَا أَدَوَاتٌ لِفَهْمِ النَّصِّ.

قَالَ الشَّيْخُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَمَا أَنَّ الْمُفَسِّرَ لِلْقُرْآنِ يُرَاعِي مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَلْفَاظُ مُطَابَقَةً، وَمَا دَخَلَ فِي ضِمْنِهَا؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يُرَاعِيَ لَوَازِمَ تِلْكَ الْمَعَانِي، وَمَا تَسْتَدْعِيهِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي لَمْ يُعَرِّجِ اللَّفْظُ عَلَىٰ ذِكْرِهَا».

ثُمَّ بَيَّنَ الطَّرِيقَ الْمُوصِلَ لِهَذَا، فَقَالَ: «وَالطَّرِيقُ إِلَىٰ سُلُوكِ هَذَا الْأَصْلِ النَّافِعِ: أَنْ تَفْهَمَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ مِنَ الْمَعَانِي، فَإِذَا فَهِمْتَهَا فَهْمًا جَيِّدًا؛ فَفَكِّرْ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا وَلَا تَحْصُلُ بِدُونِهَا، وَمَا يُشْتَرَطُ لَهَا، وَكَذَلِكَ فَكِّرْ فِيمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا، وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنْهَا، وَيَنْبَنِي عَلَيْهَا، وَأَكْثِرْ مِنْ هَذَا التَّفْكِيرِ وَدَاوِمْ عَلَيْهِ؛ حَتَّىٰ يَصِيرَ لَكَ مَلَكَةٌ جَيِّدَةٌ فِي الْغَوْصِ عَلَىٰ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةِ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا الْأُسْلُوبُ قَدْ صَارَ مَلَكَةً لَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَصِيرَ لَكَ بِالْمُدَاوَمَةِ عَلَىٰ هَذَا الْأُسْلُوبِ مَلَكَةٌ جَيِّدَةٌ فِي الْغَوْصِ عَلَىٰ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَمَا يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ الْحَقِّ حَقٌّ، وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنِ الْحَقِّ حَقٌّ، ذَلِكَ كُلُّهُ حَقٌّ وَلَا بُدَّ».

ذَلِكَ أَنَّ اللَّفْظَ الَّذِي نُرِيدُ فَهْمَهُ لَا يَخْلُو مِنْ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ:

إِمَّا أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ عَامًّا أَوْ خَاصًّا، وَأَحْيَانًا يَكُونُ اللَّفْظُ عَامًّا وَيُرَادُ بِهِ الْخُصُوصُ، وَالْعَكْسُ أَيْضًا: قَدْ يَكُونُ اللَّفْظُ خَاصًّا وَيُرَادُ بِهِ الْعُمُومُ، وَهُنَاكَ

صِيَغٌ تُفِيدُ الْعُمُومَ وَيُرَادُ بِهَا الْعُمُومُ، وَأَلْفَاظٌ تُفِيدُ الْخُصُوصَ وَيُرَادُ بِهَا الْخُصُوصُ، وَأَلْفَاظٌ تُفِيدُ الْعُمُومَ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُرَادُ بِهَا الْخُصُوصُ، وَأَلْفَاظٌ تُفِيدُ الْخُصُوصَ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُرَادُ بِهَا الْعُمُومُ، وَالْقَرَائِنُ تُوَضِّحُ وَتُزِيلُ اللَّبْسَ، وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَنَا أَهَمِّيَّةُ مَعْرِفَةِ هَذَا الْعِلْمِ؛ لِمَا لَهُ مِنْ أَثَرٍ فِي فَهْمِ النَّصِّ، وَاسْتِخْرَاجِ الْأَحْكَامِ.

مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ: عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فَلَفْظُ (الْمُطَلَّقَاتِ) هُنَا عَامٌّ، وَلَوْ فَسَّرْنَا هَذِهِ الْآيَةَ وَحْدَهَا؛ فَإِنَّهَا تُفِيدُ أَنَّ عِدَّةَ كُلِّ الْمُطَلَّقَاتِ ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ، بَيْنَمَا هَذَا الْحُكْمُ لَا يُمْكِنُ إِطْلَاقُهُ هَكَذَا عَلَىٰ جَمِيعِ الْمُطَلَّقَاتِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَتْ آيَةٌ أُخْرَىٰ فِي سُورَةٍ أُخْرَىٰ -هِيَ سُورَةُ الطَّلَاقِ- تُخَصِّصُ هَذَا الْحُكْمَ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

وَهَا هُوَ قَتَادَةُ -كَمَا أَخْرَجَ ذَلِكَ عَنْهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ- يَقِفُ مَعَ هَذَا اللَّفْظِ الْعَامِّ، وَيُخْرِجُ بَعْضَ أَفْرَادِهِ مِنْهُ، وَيُسَمِّي ذَلِكَ (نَسْخًا)، عَلَىٰ اصْطِلَاحِ السَّلَفِ فِي إِطْلَاقِ النَّسْخِ عَلَىٰ التَّخْصِيصِ؛ فَيَقُولُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «فَجَعَلَ عِدَّةَ الطَّلَاقِ ثَلَاثَ حِيَضٍ، ثُمَّ إِنَّهُ نَسَخَ مِنْهَا -أَيْ: خَصَّصَ مِنْهَا- الْمُطَلَّقَةَ الَّتِي طُلِّقَتْ وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا زَوْجُهَا، فَقَالَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، فَهَذِهِ تُزَوَّجُ إِنْ شَاءَتْ مِنْ يَوْمِهَا -أَيْ: الَّذِي طُلِّقَتْ فِيهِ-.

وَقَدْ نَسَخَ مِنَ الثَّلَاثَةِ، فَقَالَ: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ ﴾ [الطلاق: ٤]، فَهَذِهِ الْعَجُوزُ الَّتِي لَا تَحِيضُ، وَالَّتِي لَمْ تَحِضْ؛ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، وَلَيْسَ الْحَيْضُ مِنْ أَمْرِهَا فِي شَيْءٍ.

وَنَسَخَ مِنَ الثَّلَاثَةِ قُرُوءِ الْحَامِلِ، فَقَالَ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق: ٤]، فَهَذِهِ لَيْسَتْ مِنَ الْقُرُوءِ فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا أَجَلُهَا أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا».

وَهَكَذَا الْأَمْرُ بِالنِّسْبَةِ لِدَلَالَةٍ أُخْرَىٰ مِنْ دَلَالَاتِ اللَّفْظِ، وَهُوَ الْمُطْلَقُ وَالْمُقَيَّدُ؛ فَقَدْ جَاءَتْ بَعْضُ الْأَحْكَامِ فِي الْآيَاتِ مُطْلَقَةً غَيْرَ مُقَيَّدَةٍ بِوَصْفٍ أَوْ شَرْطٍ، وَجَاءَتْ أَحْكَامٌ أُخَرُ مُقَيَّدَةً بِأَوْصَافٍ أَوْ شُرُوطٍ، وَعِنْدَ تَنَاوُلِ النَّاظِرِ لِلْآيَةِ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ ذَلِكَ.

فَمَثَلًا: عِنْدَ النَّظَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾ [النساء: ١١]؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُطْلَقَةٌ، قَيَّدَهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾ [النساء: ١١]؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قَدْ قَيَّدَتْ تَوْزِيعَ الْمِيرَاثِ بِأَنَّهُ يَكُونُ بَعْدَ إِخْرَاجِ الْوَصِيَّةِ وَالدَّيْنِ.

وَكَذَا الْأَمْرُ بِالنِّسْبَةِ لِدَلَالَةٍ أُخْرَىٰ مِنْ دَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ، وَهِيَ الْمَنْطُوقُ وَالْمَفْهُومُ؛ لِأَنَّ دَلَالَةَ الْأَلْفَاظِ عَلَىٰ الْمَعَانِي: إِمَّا أَنْ تُسْتَفَادَ مِنْ جِهَةِ النُّطْقِ

وَالتَّصْرِيحِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ التَّعْرِيضِ وَالتَّلْوِيحِ، وَلَا تَخْلُو دَلَالَةُ اللَّفْظِ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ دَلَالَةَ مَنْطُوقٍ صَرِيحٍ كَدَلَالَةِ النَّصِّ، أَوْ غَيْرِ صَرِيحٍ كَدَلَالَةِ الِاقْتِضَاءِ، أَوْ دَلَالَةِ الْإِشَارَةِ، أَوْ دَلَالَةِ مَفْهُومٍ؛ مُوَافِقَةٌ أَوْ مُخَالِفَةٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ اسْتِقْرَاءٍ لِتَفْسِيرِ السَّلَفِ لِلْخُرُوجِ بِأَمْثِلَتِهِ وَتَطْبِيقَاتِهِ.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ: هَذَا الْمِثَالُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ أَثَرِ دَلَالَةِ مَفْهُومٍ فِي مَعْنَىٰ آيَةٍ، هَذَا الْمِثَالُ لِمَفْهُومٍ، هُوَ: مَفْهُومُ شَرْطٍ، اعْتَمَدَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي اسْتِخْرَاجِ حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وَهُوَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَتْرُكْ مَالًا كَثِيرًا؛ فَلَا وَصِيَّةَ عَلَيْهِ.

وَهَذَا مَفْهُومُ شَرْطٍ، أَيْ: إِنْ تَرَكَ خَيْرًا فَلْيُوصِ.

أَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لَهَا رَجُلٌ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُوصِيَ.

قَالَتْ: كَمْ مَالُكَ؟

قَالَ: ثَلَاثَةُ آلَافٍ.

قَالَتْ: كَمْ عِيَالُكَ؟

قَالَ: أَرْبَعَةٌ.

قَالَتْ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وَإِنَّ هَذَا الشَّيْءَ يَسِيرٌ؛ فَاتْرُكْهُ لِعِيَالِكَ، فَهُوَ أَفْضَلُ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَىٰ مَوْلًىٰ لَهُمْ فِي الْمَوْتِ، وَلَهُ سَبْعُ مِئَةِ دِرْهَمٍ، أَوْ سِتُّ مِئَةِ دِرْهَمٍ، فَقَالَ: أَلَا أُوصِي؟ فَقَالَ: لَا، إِنَّمَا قَالَ اللهُ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وَلَيْسَ لَكَ كَثِيرُ مَالٍ.

عِنْدَ تَأْصِيلِ مَنْهَجِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ الْأُصُولِ وَالضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يُرْجَعُ إِلَيْهَا لِمَعْرِفَةِ الْمَنْهَجِ الصَّحِيحِ لِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ حَيْثُ وُجِدَ اخْتِلَاطٌ بَيْنَ بَعْضِ السُّلُوكِيَّاتِ الْمُصَاحِبَةِ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَبَيْنَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، فَظَنَّ كُلُّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا مُتَأَثِّرًا بِالْقُرْآنِ؛ أَنَّ ذَلِكَ نَتِيجَةُ التَّدَبُّرِ، وَهُوَ غَيْرُ صَحِيحٍ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ التَّمَعُّنِ فِي هَذِهِ الْأُصُولِ وَالضَّوَابِطِ، وَلَا بُدَّ مِنْ قِيَاسِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ عَلَيْهَا؛ حَتَّىٰ يَعْلَمَ مُوَافَقَتَهُ لِلتَّدَبُّرِ الصَّحِيحِ مِنْ عَدَمِهَا.

www.menhag-un.com

مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ التَّدَبُّرَ الصَّحِيحَ يَزِيدُ الْإِيمَانَ

* مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ:

التَّدَبُّرُ الصَّحِيحُ يَزِيدُ الْإِيمَانَ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَدِلَّةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، مِنْهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

الْآيَةُ الْأُولَىٰ صَرِيحَةٌ فِي زِيَادَةِ إِيمَانِ الْمُؤْمِنِينَ بِسَبَبِ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَ تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ، وَتَدَبُّرِهِ، وَفَهْمِ مَا فِيهِ، مِمَّا يَنْتُجُ عَنْهُ الْخَوْفُ، وَالْفَزَعُ، وَالرَّجَاءُ فِيمَا عِنْدَ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَالْعَمَلُ بِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ أَوَامِرَ وَنَوَاهٍ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: فَرِقَتْ، أَيْ: فَزِعَتْ وَخَافَتْ.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾: زَادَتْهُمْ خَشْيَةً، وَلَيْسَ مُجَرَّدُ السَّمَاعِ كَافِيًا فِي حُصُولِ ذَلِكَ الْإِيمانِ؛ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ سَمِعُوا الْقُرْآنَ، وَلَكِنْ كَانَ

عَمَلُهُمُ الْإِعْرَاضَ، وَالْكُفْرَ، وَالتَّكْذِيبَ، وَالِاسْتِهْزَاءَ، وَالتَّوَلِّيَ، وَعَدَمَ العَمَلِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٨٦].

وَقَالَ: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

فَتَزِيدُهُمْ لِذَلِكَ الْآيَاتُ رِجْسًا وَكُفْرًا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ؛ فَإِنَّهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ -كَمَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ-، وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ حَقِّ الْمُؤْمِنِ، الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَ قَلْبُهُ، أَيْ: خَافَ مِنْهُ؛ فَفَعَلَ أَوَامِرَهُ، وَتَرَكَ زَوَاجِرَهُ.

وَقَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣]: «أَيْ: لَمْ يَكُونُوا عِنْدَ سَمَاعِهَا مُتَشَاغِلِينَ، لَاهِينَ

عَنْهَا؛ بَلْ مُصْغِينَ إِلَيْهَا، فَاهِمِينَ، بَصِيرِينَ بِمَعَانِيهَا؛ فَلِهَذَا إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِهَا، وَيَسْجُدُونَ عِنْدَهَا عَنْ بَصِيرَةٍ، لَا عَنْ جَهْلٍ وَمُتَابَعَةٍ لِغَيْرِهِمْ».

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ يُلْقُونَ لَهُ السَّمْعَ، وَيُحْضِرُونَ قُلُوبَهُمْ لِتَدَبُّرِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَزِيدُ إِيمَانُهُمْ؛ لِأَنَّ التَّدَبُّرَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَلِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَبِينَ لَهُمْ مَعْنَىٰ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَهُ، أَوْ يَتَذَكَّرُونَ مَا كَانُوا نَسَوْهُ، أَوْ يُحْدِثُ فِي قُلُوبِهِمْ رَغْبَةً فِي الْخَيْرِ، وَاشْتِيَاقًا إِلَىٰ كَرَامَةِ رَبِّهِمْ، أَوْ وَجَلًا مِنَ الْعُقُوبَاتِ، وَازْدِجَارًا عَنِ الْمَعَاصِي، وَكُلُّ هَذَا مِمَّا يَزْدَادُ بِهِ الْإِيمَانُ».

وَالْمُؤْمِنُ يَقِيسُ تَدَبُّرَهُ بِهَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ، فَإِنْ أَوْرَثَهُ إِيمَانًا بِاللهِ، وَتَصْدِيقًا بِرَسُولِهِ ﷺ؛ فَهُوَ عَلَىٰ جَادَّةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِنْ كَانَتْ تِلَاوَتُهُ مُجَرَّدَ أَلْفَاظٍ يُرَدِّدُهَا أَوْ أَصْوَاتٍ يَسْمَعُهَا؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَصِلْ بَعْدُ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْحَقِيقِيِّ لِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

www.menhag-un.com

عَلَامَاتُ التَّدَبُّرِ

* **الْأَصْلُ الثَّانِي**: عَلَامَةُ التَّدَبُّرِ: الْخَشْيَةُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالدَّمْعُ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ آيَاتٌ، مِنْهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ الْجَبَّارِ الْمُهَيْمِنِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ؛ لِمَا يَفْهَمُونَهُ مِنْهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ؛ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُهُمْ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالْخَوْفِ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ؛ لِمَا يَرْجُونَ وَيُؤَمِّلُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ».

وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعَالَىٰ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بِالْخُشُوعِ وَالْبُكَاءِ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٨].

فَهَذَانِ أَصْلَانِ يَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَبِرَهُمَا فِي تَدَبُّرِهِ لِكَلَامِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَأَيْضًا؛ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ أَسْبَابَ النُّزُولِ، وَأَثَرَ ذَلِكَ فِي فَهْمِ الْمُنَزَّلِ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ فَهْمِ ظُرُوفِ نُزُولِ النَّصِّ، وَهُوَ يَدُورُ حَوْلَ السِّيَاقِ الزَّمَنِيِّ وَأَثَرِهِ فِي فَهْمِ النَّصِّ.

وَمِنَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ: أَهَمِّيَّةُ الْعِلْمِ بِأَسْبَابِ النُّزُولِ مِنْ حَيْثُ تَأْثِيرُهُ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ -كَمَا يُشْتَهَرُ- أَنَّ الْعِلْمَ بِالسَّبَبِ يُورِثُ الْعِلْمَ بِالْمُسَبَّبِ، وَقَدْ أَكَّدَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: «... إِذْ هِيَ أَوْفَىٰ مَا يَجِبُ الْوُقُوفُ عَلَيْهِ، وَأَوْلَىٰ مَا تُصْرَفُ الْعِنَايَةُ إِلَيْهِ؛ لِامْتِنَاعِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ، وَقَصْدِ سَبِيلِهَا دُونَ الْوُقُوفِ عَلَىٰ قِصَّتِهَا وَبَيَانِ نُزُولِهَا».

وَأَكَّدَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ ذَلِكَ الْمَعْنَىٰ بِقَوْلِهِ: بَيَانُ سَبَبِ النُّزُولِ طَرِيقٌ قَوِيٌّ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَقَدْ كَانَ لِتَوَفُّرِ مَعْرِفَةِ سَبَبِ النُّزُولِ لِسَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ -وَعَلَىٰ رَأْسِهَا صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ- الْأَثَرُ الْكَبِيرُ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَإِزَالَةِ الْإِشْكَالَاتِ فِي عَدَمِ فَهْمِهِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الصَّحِيحِ؛ لِذَا عَدَّهُ ابْنُ عَبَّاسٍ سَبَبًا رَئِيسًا فِي اخْتِلَافِ الْأُمَّةِ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ حِينَمَا رَأَىٰ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَدْ خَلَا بِنَفْسِهِ، وَهُوَ يُحَدِّثُهَا بِقَوْلِهِ: كَيْفَ تَخْتَلِفُ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَنَبِيُّهَا وَاحِدٌ، وَقِبْلَتُهَا وَاحِدَةٌ؟!

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ إِنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْقُرْآنُ فَقَرَأْنَاهُ، وَعَلِمْنَا فِيمَ نَزَلَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَنَا أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَلَا يَدْرُونَ فِيمَ نَزَلَ!

فَابْنُ عَبَّاسٍ -وَهُوَ حَبْرُ الْأُمَّةِ وَبَحْرُهَا- يَجْعَلُ الْجَهْلَ بِسَبَبِ النُّزُولِ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ الِانْحِرَافِ فِي فَهْمِ نُصُوصِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ لِذَا فَإِنَّ النَّظَرَ لِلْقُرْآنِ كَنَصٍّ مُجَرَّدٍ مِنْ ظُرُوفِ نُزُولِهِ مُؤْذِنٌ بِانْحِرَافٍ فِي التَّفْسِيرِ، فَالْقُرْآنُ لَهُ عِدَّةُ مُكَوِّنَاتٍ مُهِمَّةٍ، تُسْهِمُ فِي فَهْمِهِ الْفَهْمَ الصَّحِيحَ، مِنْ أَعْظَمِ ذَلِكَ: مَعْرِفَةُ أَسْبَابِ النُّزُولِ، وَأَمْثِلَةُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا:

تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ يَصْعُبُ فَهْمُهَا مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةِ سَبَبِ نُزُولِهَا، وَمَعْرِفَةُ سَبَبِ النُّزُولِ يَفُكُّ الْغُمُوضَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَمَا عَلَاقَةُ دُخُولِ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا أَوْ مِنْ ظُهُورِهَا بِالتَّقْوَىٰ؟! وَلَكِنَّ سَبَبَ النُّزُولِ يَكْشِفُ لَنَا ذَلِكَ: فَقَد رَوَىٰ الْبَرَاءُ رضي الله عنه: أَنَّ الْأَنْصَارَ حَجُّوا، فَرَجَعُوا، لَمْ يَدْخُلُوا الْبُيُوتَ إِلَّا مِنْ ظُهُورِهَا، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَدَخَلَ مِنْ بَابِهِ، فَقِيلَ لَهُ ذَلِكَ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

سَبَبُ النُّزُولِ يُصَحِّحُ الْفَهْمَ الْمَغْلُوطَ الَّذِي قَدْ يُفْهَمُ أَحْيَانًا، وَلَا يَعْرِفُ الْمُفَسِّرُ أَوِ النَّاظِرُ فِي الْآيَةِ سَبَبَ نُزُولِهَا.

مِثَالُ ذَلِكَ: مَا حَصَلَ لِقُدَامَةَ بْنِ مَظْعُونٍ حِينَمَا فَهِمَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣] أَنَّهُ يُرْفَعُ عَنْهُ الْجَلْدُ لَوْ شَرِبَ الْخَمْرَ.

رَوَىٰ الْعُلَمَاءُ: «أَنَّ الْجَارُودَ قَدِمَ عَلَىٰ عُمَرَ رضي الله عنه، فَقَالَ: إِنَّ قُدَامَةَ شَرِبَ فَسَكِرَ.

فَقَالَ عُمَرُ: مَنْ يَشْهَدُ عَلَىٰ مَا تَقُولُ؟

قَالَ الْجَارُودُ: أَبُو هُرَيْرَةَ يَشْهَدُ عَلَىٰ مَا أَقُولُ... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

فَقَالَ عُمَرُ: يَا قُدَامَةُ؛ إِنِّي جَالِدُكَ.

قَالَ: وَاللهِ لَوْ شَرِبْتُ كَمَا يَقُولُونَ؛ مَا كَانَ لَكَ أَنْ تَجْلِدَنِي.

فَقَالَ عُمَرُ: وَلِمَ؟

قَالَ: لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ [المائدة: ٩٣].

فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّكَ أَخْطَأْتَ التَّأْوِيلَ يَا قُدَامَةُ، إِذَا اتَّقَيْتَ اللهَ؛ اجْتَنَبْتَ مَا حَرَّمَ اللهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لِمَ تَجْلِدُنِي؟! بَيْنِي وَبَيْنَكَ كِتَابُ اللهِ.

فَقَالَ عُمَرُ: وَأَيُّ كِتَابِ اللهِ تَجِدُ أَنِّي لَا أَجْلِدُكَ؟

قَالَ: إِنَّ اللهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ الآية، فَأَنَا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا، ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا؛ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَدْرًا، وَأُحُدًا، وَالْخَنْدَقَ، وَالْمَشَاهِدَ.

فَقَالَ عُمَرُ: أَلَا تَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ؟

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ أُنْزِلْنَ عُذْرًا لِلْمَاضِينَ، وَحُجَّةً لِلْبَاقِينَ، فَعُذْرُ الْمَاضِينَ بِأَنَّهُمْ لَقُوا اللهَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْخَمْرُ، وَحُجَّةٌ عَلَىٰ الْبَاقِينَ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، ثُمَّ قَرَأَ آخِرَ الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا، ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ نَهَىٰ أَنْ يُشْرَبَ الْخَمْرُ.

قَالَ عُمَرُ: صَدَقْتَ».

إِذًا؛ لَا يُمْكِنُ عَزْلُ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ عَنْ ظُرُوفِ نُزُولِهِ وَأَسْبَابِهَا، وَمَنْ تَجَرَّأَ عَلَىٰ ذَلِكَ أَوْ جَهِلَهُ؛ فَسَوْفَ يَقُومُ مَقَامًا خَطِيرًا فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، كَمَا حَصَلَ لِقُدَامَةَ بْنِ مَظْعُونٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَمَا غَابَ عَنْهُ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ.

وَفِي هَذَا الْمِثَالِ يُقَعِّدُ ابْنُ عَبَّاسٍ تَطْبِيقِيًّا لِأَهَمِّيَّةِ الْعِلْمِ بِأَسْبَابِ النُّزُولِ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ؛ بَلْ إِنَّ الِاعْتِمَادَ عَلَىٰ اللُّغَةِ، وَتَجَاهُلَ أَسْبَابِ النُّزُولِ قَدْ يَجْعَلُ الْمُفَسِّرَ يَحْمِلُ الْآيَةَ عَلَىٰ غَيْرِ مَعْنَاهَا.

مِثَالُ ذَلِكَ: مَا جَاءَ عِنْدَ تَفْسِيرِ تَثْبِيتِ الْأَقْدَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: «مَجَازُهُ: لِيُفْرِغَ عَلَيْهِمُ الصَّبْرَ، وَيُنْزِلَهُ عَلَيْهِمْ، فَيَثْبُتُونَ لِعَدُوِّهِمْ».

عِنْدَ التَّأَمُّلِ فِي قِصَّةِ نُزُولِ الْآيَةِ؛ نَعْلَمُ أَنَّ الْمَعْنَىٰ اللُّغَوِيَّ الَّذِي ذَكَرَهُ غَيْرُ مُرَادٍ، وَقَدْ خَطَّأَ ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا التَّفْسِيرَ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِقَوْلِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ الْمُسْتَنِدِ عَلَىٰ قِصَّةِ نُزُولِ الْآيَةِ، وَأَنَّ الْمَعْنَىٰ الصَّحِيحَ هُوَ الْمَعْنَىٰ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ قِصَّةُ النُّزُولِ، وَهُوَ: أَنَّ اللهَ يُثَبِّتُ أَقْدَامَهُمْ الَّتِي يَمْشُونَ بِهَا عَلَىٰ الرَّمْلِ؛ كَيْ لَا تَسُوخَ فِيهِ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الرِّوَايَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، حَيْثُ يَقُولُ: «وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ لَمَّا خَرَجُوا لِيَنْصُرُوا الْعِيرَ، وَيُقَاتِلُوا عَنْهَا، نَزَلُوا عَلَىٰ الْمَاءِ يَوْمَ بَدْرٍ، فَغَلَبُوا الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ، فَأَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ الظَّمَأُ، فَجَعَلُوا يُصَلُّونَ مُجْنِبِينَ وَمُحْدِثِينَ؛ حَتَّىٰ تَعَاظَمَ ذَلِكَ فِي صُدُورِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَتَّىٰ سَالَ الْوَادِي، فَشَرِبَ الْمُسْلِمُونَ، وَمَلَئُوا الْأَسْقِيَةَ، وَسَقَوُا الرِّكَابَ، وَاغْتَسَلُوا مِنَ الْجَنَابَةِ، فَجَعَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ طَهُورًا، وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَوْمِ رَمْلَةٌ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهَا مَطَرًا، فَضَرَبَهَا حَتَّىٰ اشْتَدَّتْ، وَثَبَتَتْ عَلَيْهَا الْأَقْدَامُ».

www.menhag-un.com

ضَابِطُ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ

* **الْأَصْلُ الثَّانِي**: الْعِلْمُ بِمَكَانِ النُّزُولِ، وَأَثَرُهُ فِي فِهْمِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ.

الْمَقْصُودُ بِهَذَا الْأَصْلِ: مَعْرِفَةُ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ.

وَعِلْمُ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ: عِلْمٌ يَتَتَبَّعُ أَمَاكِنَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، وَيُحَدِّدُ هُوِيَّةَ السُّوَرِ وَالْآيَاتِ؛ مِنْ حَيْثُ: هَلْ نَزَلَتْ فِي الْمَرْحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ، أَوِ الْمَرْحَلَةِ الْمَدَنِيَّةِ؟

وَاخْتَلَفَتْ وِجْهَاتُ نَظَرِ الْعُلَمَاءِ فِي تَعْرِيفِ هَذَا الْعِلْمِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ اعْتِبَارَاتٍ:

فَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَبَرَ زَمَنَ النُّزُولِ، وَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَبَرَ الْمُخَاطَبَ، وَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَبَرَ مَكَانَ النُّزُولِ.

وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَحْصُورٍ وَلَا مُطَّرِدٍ؛ فَلْنَأْخُذْ الْقَوْلَ الرَّاجِحَ فِي ضَابِطِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ، وَهُوَ اعْتِبَارُ زَمَنِ النُّزُولِ، فَهَذَا حَاصِرٌ، وَضَابِطٌ، وَمُطَّرِدٌ.

وَكُلُّ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَهُوَ مَدَنِيٌّ؛ سَوَاءٌ نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ، أَوْ فِي سَفَرٍ مِنَ الْأَسْفَارِ، أَوْ بِمَكَّةَ، وَإِنَّمَا يُوسَمُ بِالْمَكِّيِّ مَا نَزَلَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ.

هَذَا أَشْهَرُ الْأَقْوَالِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الزَّرْكَشِيُّ وَالسُّيُوطِيُّ.

لَقَدْ أَبْدَىٰ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم اهْتِمَامًا بَالِغًا بِتَتَبُّعِ أَمَاكِنِ نُزُولِ الْقُرْآنِ؛ لِمَا لِمَعْرِفَةِ مَرْحَلَةِ نُزُولِ السُّورَةِ أَوِ الْآيَةِ مِنْ أَثَرٍ فِي فَهْمِهَا، وَفِي مَوْضُوعِ التَّعَامُلِ مَعَ الْآيَاتِ

الْوَارِدَةِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، وَيَكُونُ الْحُكْمُ مُخْتَلِفًا عَنْ طَرِيقِ النَّسْخِ عِنْدَ عَدَمِ إِمْكَانِيَّةِ الْجَمْعِ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؛ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ، وَمَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ نَزَلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ؛ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ».

قَالَ مَكِّيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: «وَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ الْمَكِّيَّ مِنَ السُّوَرِ، وَالْمَدَنِيَّ؛ فَذَلِكَ مِمَّا يُقَوِّي الْفَهْمَ فِي مَعْرِفَةِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ».

فَهَذَا أَيْضًا لَهُ أَثَرُهُ فِي فَهْمِ مَعْنَىٰ الْآيَةِ وَمَدْلُولِهَا.

هَذَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، يَعْتَمِدُ عَلَىٰ مَوْضُوعِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ فِي تَصْحِيحِ فَهْمِ آيَةٍ، فِي بَيَانِ الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي بِشْرٍ، قَالَ: «قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ؟

قَالَ: هَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ؟!

قَالَ: وَكَانَ يَقْرَؤُهُ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يَقُولُ: مِنْ عِنْدِ اللهِ».

وَعِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩]، رَفَضَ الْقُرْطُبِيُّ تَفْسِيرَهَا بِمَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ؛ اعْتِمَادًا عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ

مَكِّيَّةٌ، فَيَقُولُ: قِيلَ: ﴿فَصَّلَ﴾ أَيْ: بَيَّنَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «هَذَا فِيهِ نَظَرٌ؛ فَإِنَّ الْأَنْعَامَ مَكِّيَّةٌ، وَأَمَّا الْمَائِدَةُ فَمَدَنِيَّةٌ. فَكَيْفَ يُحِيلُ بِالْبَيَانِ عَلَىٰ مَا لَمْ يَنْزِلْ بَعْدُ؟!».

وَمِنْ هُنَا لَا بُدَّ مِنَ التَّأْكِيدِ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ تَجَاهَلَ أَوْ تَعَمَّدَ فَصْلَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ عَنْ ظُرُوفِ نُزُولِهِ، وَتَعَامَلَ مَعَهُ كَنَصٍّ مُجَرَّدٍ؛ أَنَّهُ سَوْفَ يَنْقَطِعُ دُونَ فَهْمِ بَعْضِ الْآيَاتِ، وَسَيَقَعُ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الْأَخْطَاءِ الْخَطِيرَةِ.

وَيُعَدُّ هَذَا السِّيَاقُ الزَّمَنِيُّ التَّارِيخِيُّ مِنَ الْأُصُولِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَمَعْرِفَةُ ذَلِكَ يَكْشِفُ اللِّثَامَ عَنْ بَعْضِ الْآيَاتِ.

مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، هَذِهِ الْآيَةُ لَا يُمْكِنُ فَهْمُهَا دُونَ مَعْرِفَةِ عَادَةِ الْعَرَبِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْهَا الْآيَةُ؛ فَقَدْ كَانَتْ قُرَيْشٌ تَقُولُ: «نَحْنُ الْحُمْسُ أَهْلُ الْحَرَمِ، وَلَا نُفِيضُ مِنْ مُزْدَلِفَةَ»، فَأُمِرُوا أَنْ يَبْلُغُوا عَرَفَةَ.

جَاءَ هَذَا عَنْ مُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَغَيْرِهِمْ.

فَهَذِهِ الْآيَةُ يَحْتَاجُ فَهْمُهَا إِلَىٰ فَهْمِ عَادَاتِ الْعَرَبِ فِي الْحَجِّ، وَجَهْلُ هَذَا لَا يُمْكِنُ مَعَهُ فَهْمُ: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾، مَا الْمَقْصُودُ بِـ(النَّاسِ) هُنَا؟ وَمَا الْمَقْصُودُ بِالْحَيْثِيَّةِ: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾؟ وَإِنَّمَا يُعْلَمُ ذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ عَادَاتِ الْعَرَبِ وَأَحْوَالِهِمْ.

* **مِنْ أُصُولِ التَّدَبُّرِ**: أَنْ يَكُونَ بِأَدَبٍ، وَبِلَا تَكَلُّفٍ، وَهُوَ حَالُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، وَكَذَا حَالُ التَّابِعِينَ -رَحِمَهُمُ اللهُ-، كَانَ تَدَبُّرُهُمْ لِلْقُرْآنِ أَعْظَمَ التَّدَبُّرِ وَأَعْلَاهُ، مُوَرِّثًا الْعَمَلَ وَالْإِيمَانَ وَالتَّأَثُّرَ بِلَا تَكَلُّفٍ.

وَقَدْ نَبَّهَ الْعُلَمَاءُ إِلَىٰ حَالِ بَعْضِ النَّاسِ الَّذِينَ فَهِمُوا التَّدَبُّرَ عَلَىٰ غَيْرِ وَجْهِهِ؛ فَكَانَ تَدَبُّرُهُمْ صُرَاخًا وَعَوِيلًا وَتَكَلُّفًا، وَمِنْ تِلْكَ الْأَقْوَالِ الَّتِي تُحَذِّرُ مِنْ ذَلِكَ:

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ: «قُلْتُ لِجَدَّتِي أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَفْعَلُونَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ؟

قَالَتْ: كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ ﷻ: تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ.

قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ نَاسًا الْيَوْمَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ؛ خَرَّ أَحَدُهُمْ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ!

فَقَالَتْ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: «سُئِلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما: هَلْ كَانَ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْخَوْفِ؟

قَالَتْ: لَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَبْكُونَ».

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُمَحِيِّ: «أَنَّ ابْنَ عُمَرَ مَرَّ بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ سَاقِطًا، فَقَالَ: مَا بَالُ هَذَا؟

قَالُوا: إِنَّهُ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، أَوْ سَمِعَ ذِكْرَ اللهِ؛ سَقَطَ.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: إِنَّا لَنَخْشَىٰ اللهَ وَمَا نَسْقُطُ».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَدْخُلُ فِي جَوْفِ أَحَدِهِمْ!! مَا كَانَ هَذَا صَنِيعَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ».

وَقَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ: «جِئْتُ أَبِي، فَقَالَ لِي: أَيْنَ كُنْتَ؟

فَقُلْتُ: وَجَدْتُ قَوْمًا مَا رَأَيْتُ خَيْرًا مِنْهُمْ قَطُّ، يَذْكُرُونَ اللهَ ﷻ، فَيُرْعَدُ وَاحِدُهُمْ حَتَّىٰ يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﷻ، فَقَعَدْتُ مَعَهُمْ.

فَقَالَ: لَا تَقْعُدْ مَعَهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا.

قَالَ: فَرَآنِي وَكَأَنِّي لَمْ يَأْخُذْ ذَلِكَ فِيَّ، فَقَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَتْلُو الْقُرْآنَ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَتْلُوَانِ الْقُرْآنَ، فَلَا يُصِيبُهُمْ هَذَا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ أَفَتَرَىٰ أَنَّهُمْ أَخْشَىٰ للهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؟!

قَالَ: فَرَأَيْتُ ذَلِكَ كَذَلِكَ».

وَقَالَ قَتَادَةُ -بَعْدَ أَنْ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]-: «هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، نَعَتَهُمُ اللهُ بِأَنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ، وَتَبْكِيَ أَعْيُنُهُمْ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ رَبِّهِمْ؛ وَلَمْ يَنْعَتْهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ، وَالْغَشَيَانِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبِدَعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ».

وَذُكِرَ عِنْدَ ابْنِ سِيرِينَ الَّذِينَ يُصْرَعُونَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ، فَقَالَ: «بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَنْ يَقْعُدَ أَحَدُهُمْ عَلَىٰ ظَهْرِ بَيْتٍ بَاسِطًا رِجْلَيْهِ، ثُمَّ يُقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ، فَإِنْ رَمَىٰ بِنَفْسِهِ؛ فَهُوَ صَادِقٌ».

وَكَانَ جَوَّابُ يُرْعَدُ عِنْدَ الذِّكْرِ، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: «إِنْ كُنْتَ تَمْلِكُهُ؛ فَمَا أُبَالِي أَلَّا أَعْتَدَّ بِكَ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تَمْلِكُهُ؛ فَقَدْ خَالَفْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «الْخَوْفُ إِذَا سَكَنَ الْقَلْبَ؛ أَوْجَبَ خُشُوعَ الظَّاهِرِ، فَلَا يَمْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَهُ، فَتَرَاهُ مُطْرِقًا مُتَأَدِّبًا مُتَذَلِّلًا، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَجْتَهِدُونَ فِي سَتْرِ مَا يَظْهَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ وَأَمَّا الْمَذْمُومُ فَتَكَلُّفُهُ، وَالتَّبَاكِي، وَطَأْطَأَةُ الرَّأْسِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْجُهَّالُ؛ لِيُرَوْا بِعَيْنِ الْبِرِّ وَالْإِجْلَالِ، وَذَلِكَ مِنْ خُدَعِ الشَّيْطَانِ، وَتَسْوِيلٌ هُوَ مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ».

وَقَالَ أَيْضًا: «فَهَذِهِ حَالَةُ الْعَارِفِينَ بِاللهِ، الْخَائِفِينَ مِنْ سَطْوَتِهِ وَعُقُوبَتِهِ، لَا كَمَا يَفْعَلُهُ جُهَّالُ الْعَوَامِّ وَالْمُبْتَدِعَةُ الطِّغَامُ؛ مِنَ الزَّعِيقِ وَالزَّئِيرِ، وَمِنَ النَّهِيقِ الَّذِي يُشْبِهُ نَهِيقَ الْحَمِيرِ!!

فَيُقَالُ لِمَنْ تَعَاطَىٰ ذَلِكَ، وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ وَجْدٌ وَخُشُوعٌ: لَمْ تَبْلُغْ أَنْ تُسَاوِيَ حَالَ الرَّسُولِ، وَلَا حَالَ أَصْحَابِهِ فِي الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَالتَّعْظِيمِ لِجَلَالِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَكَانَتْ حَالُهُمْ عِنْدَ الْمَوَاعِظِ الْفَهْمَ عَنِ اللهِ، وَالْبُكَاءَ خَوْفًا مِنَ اللهِ؛ وَلِذَلِكَ وَصَفَ اللهُ أَحْوَالَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عِنْدَ سَمَاعِ ذِكْرِهِ، وَتِلَاوَةِ

كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، فَهَذَا وَصْفُ حَالِهِمْ وَحِكَايَةُ مَقَالِهِمْ.

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؛ فَلَيْسَ عَلَىٰ هَدْيِهِمْ وَلَا عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ، فَمَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ، وَمَنْ تَعَاطَىٰ أَحْوَالَ الْمَجَانِينِ وَالْجُنُونِ؛ فَهُوَ مِنْ أَخَسِّهِمْ حَالًا، وَالْجُنُونُ فُنُونٌ!!».

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ كَلَامَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ تِلَاوَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ مَعَ قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ، لَمْ يَكُونُوا يَتَصَارَخُونَ، وَلَا يَتَكَلَّفُونَ مَا لَيْسَ فِيهِمْ، بَلْ عِنْدَهُمْ مِنَ الثَّبَاتِ وَالسُّكُونِ وَالْأَدَبِ وَالْخَشْيَةِ مَا لَا يَلْحَقُهُمْ أَحَدٌ فِي ذلك؛ لِهَذَا فَازُوا بِالقِدْحِ المُعَلَّىٰ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

هَذَا هُوَ الْمَنْهَجُ الْمَعْرُوفُ عَنْ مُجْمَلِ السَّلَفِ الصَّالِحِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

وَهُنَاكَ اسْتِثْنَاءَاتٌ مِنْ بَعْضِ السَّلَفِ نَبَّهَ عَلَيْهَا العُلَمَاءُ:

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ إِذَا كَانَ مَغْلُوبًا عَلَيْهِ؛ لَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ حَالُ الثَّابِتِ أَكْمَلَ مِنْهُ؛ لِهَذَا لَمَّا سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ هَذَا؛ فقَالَ: «قُرِئَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ الْقَطَّانِ،

فَغُشِيَ عَلَيْهِ، وَلَوْ قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يَدْفَعَ هَذَا عَنْ نَفْسِهِ؛ لَدَفَعَهُ يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ، فَمَا رَأَيْتُ أَعْقَلَ مِنْهُ»، وَنَحْوَ هَذَا.

وَقَدْ نُقِلَ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ أَصَابَهُ ذَلِكَ، وَعَلِيُّ بْنُ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ قِصَّتُهُ مَشْهُورَةٌ.

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَهَذَا كَثِيرٌ مِمَّنْ لَا يُسْتَرَابُ فِي صِدْقِهِ؛ لَكِنَّ الْأَحْوَالَ الَّتِي كَانَتْ فِي الصَّحَابَةِ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ، وَهِيَ: وَجَلُ الْقُلُوبِ، وَدَمْعُ الْعُيُونِ، وَاقْشِعْرَارُ الْجُلُودِ.

وَقَدْ يَذُمُّ حَالَ هَؤُلَاءِ مَنْ فِيهِ مِنْ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ، وَالرَّيْنِ عَلَيْهَا، وَالْجَفَاءِ عَنِ الدِّينِ مَا هُوَ مَذْمُومٌ، وَقَدْ فَعَلُوا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ حَالَهُمْ هَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ، وَأَتَمُّهَا، وَأَعْلَاهَا.

وَكِلَا طَرَفَيْ هَذِهِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ، وَلَكِنْ مَنْ لَمْ يَزُلْ عَقْلُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ مَا حَصَلَ لَهُمْ أَوْ مِثْلُهُ أَوْ أَكْمَلُ مِنْهُ؛ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ، وَهَذِهِ حَالُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، وَهُوَ حَالُ نَبِيِّنَا صلى الله عليه وآله وسلم؛ فَإِنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَأَرَاهُ اللهُ مَا أَرَاهُ، وَأَصْبَحَ كَبَائِتٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَلَيْهِ.

وَمَنْ خَافَ اللهَ خَوْفًا مُقْتَصِدًا يَدْعُوهُ إِلَىٰ فِعْلِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَتَرْكِ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ، مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ؛ فَحَالُهُ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ مِنْ حَالِ هَؤُلَاءِ، وَهُوَ حَالُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم.

وَالصَّوَابُ لِلْمُسْلِمِ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَخَيْرَ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ، وَأَنَّ أَفْضَلَ الطُّرُقِ وَالسُّبُلِ إِلَىٰ اللهِ: مَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ؛ وَيَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّقُوا اللهَ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِمْ وَوُسْعِهِمْ».

* **وَمِنَ الْأُصُولِ فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**: أَنَّ التَّدَبُّرَ يُورِثُ العَمَلَ؛ فَإِنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ لَا يَقِفُ بِالْمُؤْمِنِ عِنْدَ مُجَرَّدِ السَّمَاعِ وَالتَّأَثُّرِ، بَلْ يَتَعَدَّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ الْعَمَلِ وَالِاسْتِجَابَةِ للهِ وَالرَّسُولِ ﷺ.

وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ التَّدَبُّرِ؛ وَإِلَّا فَقَدْ ذَمَّ اللهُ الْيَهُودَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِالْكِتَابِ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ لَا يَعْمَلُونَ بِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ**﴾ [البقرة: ٩١].

قَالَ الشَّيْخُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «كَذَلِكَ لَمَّا كَانَ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ يَقْتَضِي العَمَلَ بِهِ، وَالِانْقِيَادَ لِكُتُبِ اللهِ وَرُسُلِهِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُنْحَرِفِينَ: ﴿**وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٠١]».

لَا شَكَّ أَنَّ الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَتِيجَةُ الْإِيمَانِ بِهِ، وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ.

فَاللهَ اللهَ فِي كِتَابِ رَبِّكُمْ عِبَادَ اللهِ، أَقْبِلُوا عَلَيْهِ؛ بِإِقَامَةِ حُرُوفِهِ، وَتَدَبُّرِ آيَاتِهِ، وَفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَالْإِحَاطَةِ بِمَا يَسَّرَ اللهُ مِمَّا نَزَلَ بِهِ، مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

فَمَنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَىٰ ذُكْرٍ؛ نَفَعَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ هَمُّهُ عِنْدَ التِّلَاوَةِ آخِرَ السُّورَةِ؛ فَقَلَّمَا يَتَدَبَّرُ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْمَانُّ وَحْدَهُ بِالْخَيْرِ كُلِّهِ، وَهُوَ الْهَادِي إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ، وَهُوَ رَبُّنَا الْجَوَادُ الْكَرِيمُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

جامعة منهاج النبوة www.menhag-un.com